بلاد التيجان السبعة

أصداء المحو

الجزء الثالث



رضا الحكيم الشعيري

غادروا تيرافا مع أول حركة للعربات في أسواقها. سار أوران على الطريق الممتد بين الحقول، وتبعه نائل ورائف حتى ابتعدت البيوت، وخفتت أصوات الباعة خلفهم.

كان نائل ينتظر أن يبدأ الحديث. أمهله عند بوابة البلدة، ثم عند الجسر الصغير، لكنه حين رآه يترك الطريق العام ويصعد نحو المرتفعات، أسرع حتى صار إلى جواره.

«إلى أين نذهب؟ الطريق إلى الساحل من هناك.»

«إلى المكان الذي بدأ فيه كل شيء.»

صعدوا ممرًا تحجبه الأشجار. ظهرت تحت التراب درجات منحوتة، غاص بعضها في الأرض وانكسر بعضها الآخر عند الأطراف. لم يبحث أوران عن الطريق؛ تجاوز شجيرة كثيفة، وانعطف خلف صخرة، فعثروا على امتداد الدرج في الجهة الأخرى.

عند قمة المرتفع انكشفت الأطلال.

امتد شارع مرصوف بين قواعد أعمدة، وانتهى فجأة عند صخر داكن. خلفه بقيت واجهة بناء كبير، مفتوحة على غرف سقطت سقوفها ونمت الأشجار داخلها. في وسط الساحة نافورة جافة، وعلى جانبها درج يصعد إلى باب لم يبَق وراءه شيء.

نزل نائل إلى الشارع. كانت حجارته فاتحة، تختلف عن حجارة المرتفع. تتبع صفوف البلاط حتى الحافة، فلم يجد ركامًا يفسر انقطاعها. الجدار المجاور انتهى بالطريقة نفسها، من أعلاه إلى أساسه.

انحنى رائف، وأزاح التراب عن خط محفور عند طرف الرصيف. سار بمحاذاته، ثم عبر الشارع إلى قاعدة عمود.

«انتظرا.»

أعاد النظر بين الموضعين، واستدار نحو الواجهة.

«هذا الانعطاف أعرفه. رأيته في الخريطة التي كانت خلف الجدار.»

اقترب نائل منه.

«خريطة هذا المكان؟»

«جزء منه، على ما أظن. لم أفهم يومها لماذا ينقطع الطريق بهذا الشكل.»

وضع رائف كفه على الحجر. أحس بالأثر يمتد تحت يده، مستقيمًا نحو أرض لم تعد هناك. اتبعه حتى الحافة، حيث انقطعت صلته بما حوله.

قال أوران:

«احتفظ بما وجدته يا رائف. ستفهمه بعد قليل.»

عبر الساحة إلى جدار التفت حوله جذور غليظة. وضع متاعه قرب النافورة، ورفع بصره إلى القوس المتبقي فوق المدخل.

لحق به نائل.

«وعدتني أن تخبرني حين نصل.»

مّد أوران يده.

«أخرج القطعة التي أعطتك إياها أمك.»

أخرج نائل اللفافة وسلمها إليه. فك أوران القماش، وقّرب القطعة من الضوء، فانحنى رائف ليراها. ظهر الرمز المحفور في قلبها، أوضح مما رآه نائل في المرات السابقة.

قال أوران:

«ُحكم على أبيك لأنه رسم أرًضا قالوا إنها لم توجد. لكنه عرف طرقها، وعاش بين أهلها.»

رفع الختم بينهما.

«قبل سبعمئة عام »



كانت البلاد أرضًا متصلة.

هبطت طرق قاسران من الجبال إلى السهول دون أن يعترضها الممر المشقوق، وامتدت أنهار ميرازا بين مدن لم تفصلها الجزر بعد. وفي رهفان، حيث سيرتفع الجدار الجليدي، عبرت القوافل وادًيا مفتوحًا تحرس مداخله أبراج حجرية.

التقت الطرق في أرض واسعة تتوسط البلاد. هناك قامت أثيرا، في الموضع الذي سيحمل لاحقًا اسم بحر السكون.

وفي قلبها امتدت إيلارا.

دخل الماء العاصمة عبر قنوات تتفرع بين أحيائها، وجرت العربات فوق جسور تصل الأسواق بالمخازن. حمل التجار إليها معادن الجبال وحبوب السهول، وخرجوا منها في طرق محفوظة. خلف أسوارها تدربت الكتائب، فيما عمل البناؤون على توسيع بوابة ضاقت بالقوافل.

في الساحة الداخلية للقصر، اندفع ولي العهد بسيف خشبي نحو كتف أوراس.

أزاح الفارس سلاحه، ومد قدمه في طريقه، فسقط الفتى على ركبته.

«تنظر إلى الموضع الذي تريد ضربه قبل أن تتحرك.»

نهض الأمير، ونفض التراب عن ثوبه.

«لأنك لا تترك موضعًا آخر.»

«إذن اجعلني أتركه.»

هجم ثانية، أسرع من المرة الأولى. قبض أوراس على معصمه وأدار السيف إلى الخارج، فوجد الأمير نفسه يواجه الساحة بدل خصمه.

من الشرفة المنخفضة جاء صوت أخته الصغيرة:

«هذه أسوأ من الأولى.»

كانت تحمل قطعة خبز اقتطعتها من مائدة الإفطار. التفت إليها أخوها، فطرق أوراس كتفه بالسيف الخشبي.

ضحكت الطفلة، ونزلت الدرج مسرعة.

قال الأمير:

«إن كنت تعرفين كل شيء، جربي.»

ناولها سيفه. رفعته بكلتا يديها، ثم هبط طرفه إلى الأرض. أعاد وضعه بين كفيها وأراها كيف تقربه من جسدها.

دخل رجل يحمل سجلًا مختومًا، واستند إلى أحد الأعمدة يتابعهم.

قال لأوراس:

«ما زلت تُسقط تلاميذك بالطريقة نفسها.»

«وما زلت تروي أنك غلبتني.»

«غلبتك فعلًا.»

«بعدما دفعتني إلى حفرة.»

«كان عليك أن تراها.»

عرف الأمير هذا الحديث؛ سمعه منهما كلما التقيا في ساحة التدريب. كان الرجل من آل فالدار، حارس الخريطة، وقد بدأ خدمته مع أوراس قبل أن يتولى أحدهما قيادة الفرسان ويؤتمن الآخر على الخريطة الأصلية.

اقترب من الفتى، وأعاد السيف إلى يده.

«لا تحاول أن تكون أسرع منه دائمًا. دعه ينتظر الخطأ الذي اعتاده، وافعل شيئًا آخر.»

أشار أوراس إلى الساحة.

«جئت تسلّم السجل أم تفسد التدريب؟»

«الملك ينتظره. أما التدريب، فقد أفسدته قبل وصولي.»

غادر إلى الداخل، بينما عادت الطفلة تطلب دورًا آخر.

في مجلس الملك وقف مزارع يحمل وثيقة حقل.

نقل رجال أحد أصحاب النفوذ الحجارة الفاصلة بين أرضه وأملاك سيدهم، وأدخلوا العمال إلى الحقل لشق قناة. بقي صاحبه أيامًا ينتقل بين الموظفين قبل أن يصل إلى القصر.

قارن الكاتب الوثيقة بالسجل ووضعهما أمام الملك.

قال صاحب النفوذ:

«الحقل يعطل وصول الماء إلى أراضّي. عرضت عليه ثمنًا يشتري به أفضل منه، لكنه يرفض لأن أباه ُدفن عند طرفه.»

سأله الملك:

«فأخذته دون موافقته؟»

«لا يمكن تعطيل العمل من أجل رجل واحد.»

أعاد الملك الوثيقة إلى المزارع.

«ُترد الأرض وحدودها اليوم. تمر القناة في موضع آخر، ويُعوّض ما أتلفه رجالك من مالك. سترافق موظف المجلس وتشهد تنفيذ الحكم.»

خرج الرجل خلف المزارع.

كان الأمير يتابع الأحكام من جوار أبيه. وبعد انصراف أصحاب العرائض، دخل رسول بخبر احتراق قافلة عند حدود مملكتين. تحوّل نزاع على رسوم العبور إلى

قتال، وأُغلقت الطريق على الناجين.

قرأ الملك أسماء القتلى وترك الرقعة أمام ابنه.

«عبر هؤلاء أرضنا آمنين. ماتوا بعد آخر برج.»

في وقت لاحق أخذه إلى غرفة الخريطة.

امتدت الرقعة الأصلية فوق قاعدة حجرية، تحيط بها مواضع الآثار. وقف حارسها من آل فالدار عند المدخل، وفسح لهما الطريق.

أشار الملك إلى موضع قريب من إيلارا.

«قطع السيل الطريق هنا. العربات تنتظر منذ الصباح.»

وضع الختم على العلامة، ووّجه خطًا قصيرًا بين طرفي الطريق.

خارج المدينة ارتجف الطين في مجرى السيل. ارتفعت حجارة غاصت تحته، وتماسكت الأرض بينها حتى اتصل الطرفان بممر ضيق. اختبره أحد الحراس، وأشار للعربة الأولى بالعبور.

رفع الملك يده عن الخريطة، وأخذ نفَسا قبل أن يبتعد عنها.

اقترب الأمير من الخط الجديد.

«لو اتصلت الطرق كلها هكذا، لما بقي أحد ينتظر عند الحدود.»

«قد أصلح طريقًا، لكن جيشًا يستطيع إغلاقه في اليوم التالي.»

نظر الملك إلى الخريطة التي تتوزعها حدود الممالك.

«أريد أن أوّحد البلاد تحت حكم عادل، وأن أعيد رسم خريطة العالم. إن نجحنا، فستحكم يومًا أرضًا أوسع من أثيرا. عليك أن تتعلم كيف تحفظ حقوق أهلها قبل أن تفكر في اتساعها.»

قال الأمير:

«وإن رفض الملوك؟»

«نبدأ بإقناعهم.»

اجتمع الحكام السبعة في إيلارا.

جاء دامار من قاسران، وإيران من إيفارا، وميرالا من ميرازا. حضر كاهر عن رهفان، وأردان المشرّع عن ألدوريا، ونايرا عن نومارا، وزافير عن زافرين.

كانت شاراتهم تحمل تفاصيل ستختفي من الصور التي يرثها أحفادهم. بقيت الريشة الثامنة في رمز زافرين، وبقي المقعد الثامن في رسوم الموائد المشتركة. وعلى الخريطة أمامهم ظهرت أثيرا باسمها ومدنها وطرقها.

عرض الملك مشروعه.

تحدث عن بلدات تدفع الضرائب لجيشين في عام واحد، وعن أراضٍ تتبدل تبعيتها كلما مات حاكم، وعن تجار يحملون السلاح أكثر مما يحملون البضائع.

سأله زافير:

«ومن يفصل بيننا حين نختلف؟»

«قانون واحد، وسلطة تستطيع تنفيذه.»

«سلطتك أنت.»

«لن يقوم حكم مشترك إذا احتفظ كل واحد بحق إبطاله حين لا يعجبه.»

تدخل كاهر مطالبًا ببقاء جيشه تحت أمره وحده. رفض أردان التخلي عن استقلال حكمه، وأيدته نايرا. أما دامار وإيران وميرالا فطلبوا وقتًا للنظر في الشروط.

نهض زافير قبل أن يُكتب اتفاق.

«جئنا ملوكًا. لن نخرج موظفين عندك.»

بعد رحيلهم وجد الأمير أباه في غرفة الخريطة.

«لن يقبل زافير. سمعته يتحدث إلى كاهر قبل أن يغادر.»

«وماذا قال؟»

«إنك بدأت تنظر إلى عروشهم كأنها ملكك.»

جمع الملك الرقاع الموضوعة حول الخريطة.

«خاف مما سيخسره قبل أن يسأل عما يمكن أن يتغير.»

«وسيحاول منعك.»

«أعرف.»

لم يُخفِ الجواب قلق الأمير. كان يتصور أن رفض رجل واحد لا يكفي لإيقاف مشروع كهذا، لكنه رأى كيف خرج الملوك من القاعة، وكيف احتفظ كل واحد برجاله قريبًا منه.

جمع زافير كاهر وأردان ونايرا بعيدًا عن القصر.

وضع أمامهم رسمًا لمواضع القوى حول الخريطة الأصلية.

قال كاهر:

«لن نهزمه في أرضه. سيجعل أوراس كل طريق ندخله مقبرة.»

«لن ندخلها بجيش.»

شرح زافير ما يريد: تجتمع القوى السبع، ويُتاح لهم الوصول إلى الخريطة والختم. تُمحى أثيرا، ويُثبت مكانها رسم آخر تقبله الممالك الباقية.

قال أردان:

«فيها مدن وناس.»

«وفي بلادك مدن وناس. هل تسلّمهم لحكمه حين يأتيك بالقوة؟»

لم يكن الملك قد هددهم بالحرب، لكن زافير أعاد طرح الاحتمال كلما عاد أحدهم إلى كلفة المحو. وحين انتهى اللقاء، كان الثلاثة قد وافقوا.

استُدعي دامار وإيران وميرالا إلى اجتماع تلِل. وجدوا القرار قد اتُخذ، ولم يُطلب منهم إلا إحضار آثارهم.

رفض إيران أولًا.

وضع زافير أمامه خريطة حدود إيفارا، وحدد طرق الجيوش التي ستعبرها. فعل الأمر نفسه مع المملكتين الأخريين.

«لن نترك وراءنا ثلاث قوى تستطيع تعطيل ما اتفقنا عليه. تشاركون، أو نأخذ الآثار بعد سقوط عواصمكم.»

كان فارس إيفارا واقفًا خلف ملكه. سمع تهديد الأسرة، وسمع مواعيد الغزو، ورأى إيران يطوي الخريطة بيدين مرتجفتين من الغضب.

خرج الملوك الثلاثة وقد أُكرهوا على المشاركة.

دخل حارس الخريطة على زافير ليًلا.

لم يحمل شارة أسرته. أغلق الباب وراءه، وجلس أمام الرسم.

قال زافير:

«تحرس ملكًا يريد تحويل الممالك إلى أقاليم. تستطيع أن تصبح ملكًا بدل أن تبقى حارسًا.»

«وعلى أي أرض؟»

«الأرض التي ستقوم مكان أثيرا. تحكمها أسرتك، وتصبحون أصحاب التاج الثامن.»

تتبع الرجل موضع المملكة بأصبعه.

«ومن يضمن أنكم لن تقسموها بينكم؟»

«وجود مملكة تحفظ الاتفاق أنفع لنا. عرشك سيقوم بنا، وتعرف ذلك.»

بقي حارس الخريطة يتفحص الرسم، ثم حدد موضع القاعة التي يمكن أن تستضيف الاجتماع.

«اطلبوا إحضار الأصل لمناقشة الطرق والحدود. سأختار رجال النقل والحراسة. حين يبدأ الحديث، يكون الوصول إليه ممكنًا.»

رآه فارس إيفارا يخرج من عند زافير.

عرف وجهه من قصر أثيرا، وأخبر إيران بما رأى. لم يكن لديه دليل على الصفقة، لكن ملكه فهم ما قد يعنيه اللقاء.

كتب رقعة قصيرة وأعطاها له.

«تحملها إلى ملك أثيرا. لا تذكر اسمًا، ولا تخبر أحدًا أنك جئت من عندي.»

اعترض الفارس:

«إن كان حارس الخريطة معهم، فعليه أن يعرف.»

«إن عرف زافير من حذره، بدأ بأسرتك قبل أسرتي. أوصل الرسالة. هذا أمر.»

حمل الفارس التحذير، وترك الاسم الذي كان يمكن أن يغيّر الحراسة حبيس صدره.

قرأ ملك أثيرا الرقعة:

«لا تأمن الموافقة الجديدة. لا أستطيع أن أقول أكثر. احمِ ما لا يمكن تعويضه.»

أحرقها بعد قراءتها.

لم يعرف تفاصيل الفخ، ولا اليد التي امتدت إليه من داخل قصره. أمر بزيادة الحرس، واستدعى أوراس.

كان الأمير يشارك الفرسان التدريب حين وصل الاستدعاء.

هاجم أوراس من الجهة التي اعتادها، لكنه غيّر ضربته عند اللحظة الأخيرة. اضطر الفارس إلى خطوة جانبية، وردّ سيفه قبل أن يفتح لنفسه طريقًا بين بقية المهاجمين.

أزاح رمحًا، وضرب قبضة، وجعل فارسين يعترض أحدهما الآخر. انتهى الهجوم والأسلحة عند الأرض.

رفع الأمير سيفه.

«أخذت خطوة.»

«رأيت.»

«غدًا آخذ الثانية.»

تركه أوراس يجمع سلاحه، ودخل على الملك.

كانت الدعوة الجديدة قرب بقايا الرقعة المحروقة.

قال الملك:

«ابَق قريبًا من ابني. إن تأكدت الخيانة، أنقذه وخذ الختم.»

«أزيد الرجال حولك، وأختار موقعهم بنفسي.»

«افعل. لكن إن اضطررت إلى الاختيار، فلا تجعل الاختيار يبطئك.»

قرأ أوراس الأمر في وجهه. حاول أن يعترض، فرفع الملك يده إلى كتفه.

«أثق بك في هذا أكثر مما أثق بأي رجل.»

عند الرحيل لحقت أخت الأمير الصغيرة بأخيها. كانت تحمل شريطًا ضيّقا لتلفه حول قبضة سيف التدريب، وأصرت على أن يأخذه قبل أن يخرج.

ربطه حول معصمه.

«حين أعود، سنرى إن كنت تستطيعين رفع السيف.»

«وتدعني أضربك؟»

«عليك أن تصيبي أوّلا.»

تركها عند باب القصر، ولحق بأبيه.

كانت الخريطة في وسط القاعة حين دخلوا.

وقف حارسها من آل فالدار عند طرفها، في الموضع الذي عرفه أوراس سنوات طويلة. مر به فبادله التحية، ثم اتخذ مكانه قريبًا من الأمير.

ُوضعت الآثار السبعة.

بدأ الحديث عن الطرق.

تحرك رجال عند الأبواب، وتبدلت الحراسة في المدخل الداخلي. رأى أوراس ممثل آل فالدار يسحب قيد الباب، فخطا نحو الملك.

ضرب زافير قبل أن يبلغه.

دخل النصل في جانب ملك أثيرا. حاول الوصول إلى الختم، فأمسك به حارسه القديم، وجاءت الطعنة التالية.